القسم الثالث

الخطاب والمخاطب

obeikandl.com

obeikandl.com

مواصفات الخطاب وأنواع المخاطب

فئات المخاطبين

تتحدد مواصفات الخطاب المعرفي الإسلامي حسب نوع المخاطَب، وما دامت أنواع المخاطب كثيرة، فأشكال الخطاب ينبغي أن تكون كثيرة كذلك، وإن كان موضوع الخطاب هو نفسه لكل المخاطبين، لكن لكل مخاطب خطاباً، حسب ما هو مهيأ لفعله وما هو منوط به، في إطار عملية إصلاح مناهج الفكر، وبرنامج إسلامية المعرفة.

ويصعب علينا في هذه الدراسة الوجيزة أن نقوم بالجرد الشامل لجميع أنواع المخاطبين، وهم جميع أفراد المجتمعات الإنسانية البالغين العاقلين، أو أن نحدد مواصفات الخطاب ومضامينه لكل منهم، ولكننا سنبين هذه المواصفات والمضامين لعينة نرى أنها تمثل القسط الكبير من الجمهور المخاطب، وتقدم مسحاً وتصنيفاً لأغلبية فصائله. هذه العينة تشمل الأنواع التالية من المخاطبين في الداخل الإسلامي:

1- الرسميون.

2- اللادينيون.

3- أعضاء الحركات الإسلامية

4- خريجو الجامعات والمدارس الدينية.

5- أصحاب التسطيح.

6- أصحاب التوفيق والتلفيق.

7- العوام.

8- الطالب الجامعي.

9- الإطار الأكاديمي «الباحث والأستاذ الجامعي».

1- الرسميون:

يغلب على الاتجاهات الرسمية في العالم الإسلامي الحذر من الوعي الفكري الإسلامي ومن الوعي الثقافي العالي، لأسباب كثيرة لا نطيل شرحها، لعل منها أن تقديم البديل الثقافي والمعرفي من المنظور الإسلامي، مغاير لسياسات النظم التعليمية والتربوية والثقافية، وهذه النظم ألفت الآحادية، ولا ترضى بمنافس لأطروحاتها في أي مجال.

لكن ذلك لا يعني أنه لا يمكن الحصول على أي موقع نم المواقع الثقافية في صفوفها، فهناك كثير من رجالات المعرفة والأكاديميين يودون إدخال النافع المفيد من خلال المؤسسات التي يقومون عليها، والمراكز التي يعملون بها، وقد يستطيع بعضهم أن يكون عوناً على التوعية بهذه القضية وتجنيد بعض الطاقات لها. وهنا لا مجال للأحكام العامة، فلا بد من الملاحظة والتتبع للوصول إلى العناصر الجيدة.

ولا بد من عرض قضيتنا على هذا النوع من الناس، بشكل يقنعهم بأنها يمكن أن تكون حلاً لكثير من الأزمات، ويربطها ببعض اهتماماتهم وقضاياهم ليكونوا عوامل مساعدة في تقديمها، بدل أن يكونوا عقبة في طريقها. أضف إلى ذلك أن معظم الأنظمة قد بدأت تدرك كثيراً من جوانب القصور في أنظمتها التعليمية، وبعضها قد بدأ يبحث بإخلاص عن الوسائل المناسبة لإصلاح نظمها التعليمية؛ فذلك يعني أننا مطالبون بتكوين خبرات في هذه المجالات يمكن تقديمها لمن يحتاجها من هذه الجهات في الوقت المناسب. وقد كانت للمحاولات الأولية والخبرات التي قدمها المعهد للجهات التي استعانت به في إصلاح بعض جوانب العملية التعليمية وترشيدها أثرها في بناء

جسور الثقة بين هذه الجهات وبينه، وعلينا مضاعفة قدراتنا وخبراتنا ليكون لنا درو في إصلاح التعليم، والعملية التعليمية، وبناء قاعدة معلومات في هذا المجال على مستوى نظري وعملي، وعلى مستوى الأشخاص والأفكار والمؤسسات والبرامج، تعود بالنفع الكبير على أمتنا كلها.

شكل (5-1)

2- اللادينيون

وأما اللادينيون أو العلمانيون، فلا ينبغي النظر إليهم على أنهم كتل أو أحزاب أعضاؤها أصحاب عقلية موحدة، ورؤى موحدة للكون والحياة. فلقد علمنا القرآن الكريم أن لكل قوم من هؤلاء ملأ أو نخبة، وأن هناك جمهوراً وراء هذه النخبة. فالجمهور إذا تجاوزنا الملأ إليه واستطعنا مخاطبته، وإيصال كلمتنا إليه بوضوح، وأمكننا إقناعه بأننا عناصر تغيير، نستهدف إعادة بناء هذه الأمة ووضعها في دور الشهود الحضاري، فقد نستميل الكثير من هذا الجمهور ومن الأغلبية الصامتة، التي لم تمل جهة هذا الملأ إلا لظنها بأنه هو الجدير بتحقيق آمال الأمة وأهدافها. أما الملأ نفسه فسوف يدافع عن مواقعه، ويبذل جهده في تسفيه أفكارنا ومقاومتها، وتلك طبيعة التدافع، والعاقبة للمتقين. ومع كثرة من سخر بقضيتنا من هؤلاء، لكن بعضهم قد بدأ يراجع نفسه، ويعتذر بالجهل بقضيتنا وأهدافها، وتسرعه في مهاجمتها من منطلق الجهل بها، وقياسها على سواها.

كما أن التعامل مع هذا الفريق يمكن تحويله إلى إمكانية من خلال محاولة إيجاد توجه مقابل في المواقع العلمانية نفسها، تكون له أطروحاته التي يستطيع اتجاه «إسلامية المعرفة» توظيفها في عملية هز القناعة الفكرية والمعرفية لأفراد الملأ، بانتقاد الأسس المعرفية للحضارة الغربية نقداً علمياً رصيناً محكماً، مما يؤدي -مع تشجيع هذا الفريق على توسيع قاعدة ممارسة النقد لمجمل الأطروحات الغربية- إلى كسب بعض العناصر منهم بعد ذلك لصالح «المعرفة الإسلامية»[1].

وبما أنهم على عادتهم سيكونون بالمرصاد لكل تحرك من قبيل ما نحن فيه، وسيتصدون لنقده، وكشف ثغراته وعيوبه، فإننا نستطيع أن نستفيد من

---

(1) كما حدث في ندوة «التحيز» في القاهرة، وما أحدثته من ردود فعل هامة، ليس على مستوى مصر فقط، بل على مستوى عربي، كما بدأت تفاعلاتها وآثارها تغزو المستوى العالمي. ولقد شكلت الندوة حجر زاوية في بناء حاسة النقد المعرفي لمجمل المعرفة العربية المعاصرة في العالم العربي خاصة الذي قل إن يجد كثير من علمائه فرصة للاطلاع على النقد الغربي ذاته للفكر الغربي. فكيف بسواه؟!

ترصدهم وتعقبهم لأطروحاتنا ومشاريعنا، في تلافي بعض النقائص وسد الثغرات، ثم مواصلة البناء، وتلك فائدة أخرى من فوائد الاحتكاك بهذا الفريق.

ثم من جهة أخرى، ستتفاوت مستويات الاستجابة وردود الأفعال من هذا الفريق على تنوعه؛ ما بين فريق يعتبر هذا الطرح الفكري محاولة متجددة من تيار ثقافي، تتسم بالذكاء وتستحق الحوار فيها، وما بين رافض لها ومهاجم يعتقد أن هذا الطرح خطوة على طريق إبعادهم عن مواقعهم من السيطرة الفكرية والثقافية والمعرفية، ومروراً بمتقبل لها ومتفهم لحقيقة طرحها، تمهيداً لانتقاله من مواقع اللادينيين إلى مواقع الإسلاميين، وتبني قضاياهم وأطروحاتهم الفكرية.

والمعهد يستطيع -بعد نجاحه في استقطاب كثير من العقول التي كانت محسوبة على تلك التيارات- أن يحمد الله ويشكره على نجاحه في احتضان كوكبة من العقول النيرة، التي أصبح بها أثرها الطيب في إغناء الفكر الإسلامي المعاصر، وإثراء خبرات الإسلاميين، وإعادة الثقة لهم ببقية فصائل الأمة، وعدم جواز المسارعة إلى رميهم بالمروق أو الردة لمجرد تبينهم لبعض البرامج الدنيوية، لظنهم أن تبنيهم لها لا يخرجهم من الملة أو أنه قد يعود على الأمة بخير كثير.

ولقد تحمل المعهد من بعض «الماضويين السكونيين» كثيراً من اللوم والانتقاد، بل والاتهام في بعض الأحيان، لكنه واصل سيره. والذين حضروا «ندوة التحيز» في القاهرة، واستمعوا لحوارات المشاركين فيها، يستطيعون أن يدركوا أن المعهد قد خطى أوسع الخطوات -بفضل الله- نحو بناء «المشروع الحضاري الإسلامي» الذي لم يعد في مقدور فئة واحدة من فئات الأمة أن تبنيه. كما استطاع المعهد أن يثبت من خلال ذلك أن «المدخل المعرفي»، هو المدخل الأنجح من سائر المداخل الأخرى في حشد طاقات أبناء الأمة -كلها-، ووضعها على صعيد لتبني مجتمعة بخبراتها المتنوعة ومنطلقاتها المتعددة و«منهجيتها المعرفية القرآنية الموحدة» مشروع الأمة الحضاري،

المقبل إن شاء الله. أما «الماضوية السكونية» فهي إلى زوال وتلاشٍ مهما أبرقت وأرعدت.

شكل (5-2)

3- أعضاء الحركات الإسلامية

الحركات الإسلامية على الجملة، يسودها في الحاضر الاتجاه الذي يُنعت ويَنعت نفسه «بالسلفي» ونعني به الاتجاه الذي يحاول أن يجعل حواره في كل أمر حواراً عقدياً، أو فقهياً في أحسن الأحوال. فبعد تعقيد الظروف والأحوال، وظروف الاضطهاد والمطاردة والتشريد والفتنة بكل أنواعها، انتقلت مواقع القيادة الفكرية لهذه الحركات إلى عناصر لم تتح لها تلك الظروف أن تكتسب من الخبرات والتجارب، وطرق العمل الفكري والسياسي خارج حلبة الصراع وطبيعته، ما يمكنها من إدراك أهمية البعد الفكري والتناول الحضاري لقضاياها.

كما أن تضاؤل دور مصر الإسلامي والشام بخاصة، وبروز تأثير المدرسة الإسلامية العراقية والخليجية كقيادة فكرية وفقهية وعقدية في المجال الإسلامي، بعد التحولات الاقتصادية المعروفة، أدى هذا كله إلى تضاؤل دور الفكر في توجه هذه الحركات وفي البناء الثقافي لها، ولذلك فإن معظمها تنظر إلى القضية الفكرية والأزمة الفكرية والمدخل المعرفي على أنها ترف فكري، أو خطأ في تشخيص أزمة الأمة، أو تهديد لوسائلها التنظيمية ونظمها الحركية، أو محاولة عقلانية، أو مؤامرة لتقديم بديل عنها، أو مشروع للفكر والتوعية سوف يغير في خريطة الولاء أو يضعف ثقة الجمهور بالقيادة ويظهر إفلاسها وعجزها، وبعض هذه التوجهات يعدّ رأس مالها -كله- قائماً على تكريس ثقة جماهيرها بقيادتها، فهذه الثقة -في نظرهم- هي البديل الأسهل عن الوعي على الذات والوعي بالموقف والوعي الآخر، والوعي بالرسالة ذاتها.

وواقع الحال أنه ليس من طبيعة المشروع الفكري والثقافي أن يستقطب جماهير، أو يشكل قواعد تنظيمية في بداياته، وتوجه «إسلامية المعرفة» لا يقدم نفسه بديلاً عن أي من الحركات الإسلامية الفاعلة في الساحة، وإنما يعتبر وظيفته سد ثغرة الفكر والمعرفة والثقافة، هذه الثغرة التي طالما أهملت، أو لم تعط ما تستحق من المعالجة والتناول.

وتأكيد المرابطة على ثغر القضايا الفكرية أو المعرفية والثقافية والحضارية، كفيل بتطمين من يحتاج إلى تطمين بأن هذا الاتجاه يحمي ولا يهدد، ويزكّي وسائل الأمة، ويعينها العون الحقيقي، ويساعد المخلصين في العمل على إنقاذها ولا ينافسهم في دنياهم، ولا يزاحمهم على ثغورهم.

كما أنه وفق أطروحاته الفكرية يتجاوز التناول العقدي المنزلق حتماً إلى قضايا التكفير، سواءً للمجتمع أو الأفراد أو المذاهب، والمتجه إلى الصراع والعنف مع سائر الفئات والجماعات والأنظمة، بل إن «إسلامية المعرفة» يؤكد تناولها الفكري القاعدة المجمعة التي توحد ولا تفرق، متحاشية ما أمكن منزلق التكفير والأحكام على الناس فئات أو أفراداً، إذ إن التناول الفكري بطبيعته يدفع إلى تحليل المواقف ومعرفة خلفيتها وطبيعتها الفكرية، ودوافعها التي تتطلب معالجة وحلاً فكرياً شاملاً، مستنداً إلى الأصول العقدية كقاعدة فكرية لا تكفيرية، ومستلهماً حقيقة الشريعة، ومدركاً لروحها ومقاصدها. فلا يبسّط القضية ويختزلها إلى فتوى ضد هذا وحكم ضد ذاك، بل يعيها قضية، ويخدمها معالجة، ويدرسها ظاهرة.

وإذ قدرنا لنا أن نحكم سبل تقديم قضيتنا لشباب هذه الحركات ومثقفيها، وحسن عرضها عليهم بشكل مناسب، فإن الكثيرين منهم يمكن أن يتبنوها، أو يستفيدوا بكثير من جوانبها، أو يضمنوها مشاريعهم وبرامجهم، أو يعيدوا تقديمها ضمن أطروحاتهم ومعالجتهم. فقد سبق للكثير من هذه الحركات أن تبنت الأطروحات الفكرية لدعاة إصلاح وتجديد مثل الشيخ محمد عبد الوهاب، والإمام الشوكاني، وشاه ولي الله الدهلوي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومن سبقهم أو لحق بهم. كما أن التطور الذي يجري في بعض البلدان لبعض هذه الحركات أو الاتجاهات سيجعلها لا محالة في موقف التبني الكلي أو الجزئي لهذه القضية، فالمسألة بالنسبة لهذه الحركات مسألة مثابرة، وحسن عرض وتنوع في أساليب التقديم، وحكمة في بناء العلاقات، وشكر المحسن، والصبر على أذى المسيء، بل إن بعض قيادات هذه الحركات قد بدأت -بالفعل- تتمثل بعض ما تقدمه مدرسة المعهد من أفكار، ويعيد بعضهم صياغتها بأسلوبه، ونشرها بين أتباعه دون إشارة للمعهد

أو للمؤلفين، وقد كان ذلك يزعج بعض رجال المعهد -وأنا منهم- لكني كنت سعيداً جداً حين لقيت بعض أبناء تلك الحركات يحملون تلك الرسائل، التي ينشرها بعض القادة، ومعها كتب المعهد، ويقولون لي بكل ثقة: حين عجزنا عن إقناع قادتنا بتبني كتبكم كما هي وتقريرها علينا لاختلافهم معكم، حملناهم على تلخيص المقبول منها وإصدارها بأسمائهم فما رأيكم؟ فشكرتهم على لطف تدبيرهم وأعطيتهم الحق بأن يفعلوا ذلك كلما شعروا بالحاجة إليه، فالمهم وصول الزاد الفكري السليم إلى أبناء الأمة، وليس بمهم النظر في كيفية وصوله وتحت أي اسم أو شعار يصل. والذين لا يعرفون هذا من شباب هذه الحركات قد يلومون المعهد على عدم انضمامه إلى جماعتهم التي تقدم الأفكار نفسها!! ناسين أو متناسين خطورة أفكار التحزب على مفهوم «الأمة» في حالات التخلف الفكري.

كما أن هناك قضية أساسية لا ينبغي التغافل عنها، وهي قضية تأصيل الحركة وبيانها، وتأكيد أنها حلقة مباركة من سلسلة طويلة من محاولات الإصلاح الفكري والثقافي، قد تكون بدأت بمحاولة حماية المصدر الأول وهو القرآن الكريم بالتدوين، ثم حماية المصدر الثاني بالجمع والتدوين، ثم إعداد المنهج وكتابته وجمعه وتدوينه قبل انتهاء القرن الهجري الثاني، ثم ما تلى ذلك من محاولات الإحياء والتجديد الفكري والثقافي على أيدي الأئمة في القرون الأولى، والأئمة العظام الذين جاؤوا بعدهم، أمثال ابن سريج وإمام الحرمين وأبي يوسف ومحمد بن الحسن الغزالي، والعلماء الذين مهدوا لعهد صلاح الدين، وابن حزم، وابن رشد، وابن تيمية، وابن القيم، وابن خلدون، ثم قادة حركة الإصلاح الحديث، الذين تميزت حركاتهم بتناول أهم قضية من قضايا الإصلاح الفكري وهي قضية الاجتهاد والتقليد، أمثال شاه ولي الله الدهلوي، ومحمد بن عبد الوهاب، والشوكاني، والأفغاني، والنائيني ومحمد عبده، ورشيد رضا، وقادة حركة الإصلاح الإسلامية الحديثة مثل الأساتذة: أبو الأعلى المودودي، وابن باديس، وعلي شريعتي، وحسن البنا، ومطهري، وقطب وغيرهم.

فربط هذه القضية بحركة الإصلاح الإسلامي العامة، قد يطمئن بعض قادة

هذه الحركات، ويجعلها قادرة على فهم هذه القضية وفهمها وحسن استقبالها. ولقد أمر رسول الله ﷺ أن يؤكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 9].

وهناك أمر ثالث ينبغي الالتفات إليه، وهو أن لدى هؤلاء كلمات أصبحت أشبه بالكلمات المفتاحية، إذا ما وردت في خطاب أبدوا تحفظهم عليه، وربطوه ببعض الاتجاهات المرفوضة لدى الجمهور. كما أن هناك كلمات وأسماء تفعل فعلاً معاكساً، أي تبعث على الاطمئنان والثقة! فينبغي الانتباه إلى مثل هذا الأمر في أدبياتنا وأسلوب خطابنا وتناولها. كما أن البعد عن النزعات الحزبية ومحاور الصراع والاستقطاب بينها من الأمور المساعدة على تجنيب قضيتنا أسباب الصراع، وجعلها -في الآخر- إن ملاحظة ما ذكرنا مع الحرص على إقامة العلاقات الودية مع القيادات الثقافية، ومخاطبة الشباب المتعلم مباشرة، والمشاركة في المجالات والمواسم الثقافية بقدر الإمكان، سوف يزيد في مساحة الفهم، وسيساهم في طمأنة المخاوف إن شاء الله، وسيمكن من المزيد في مجالات تحويل هذا الاتجاه إلى إمكانية بإذن الله، بدلاً من أن يظل عقبة. ولنا إن شاء الله تعالى إلى هذا الموضوع عودة. حيث إن أهم الأسباب التي أحبطت محاولات التجديد خلال القرنين الماضيين كانت تكمن في تصارع حركات التجديد ذاتها، وانشغال بعضها بالبعض الآخر.

المخاطَب

الحركات الإسلامية

مواصفاته	- سيادة الاتجاه الإسلامي الماضوي (أو السلفي). - تضاؤل دور مصر والشام. - بزوغ تأثير المدرسة العراقية الخليجية التراثيّة.
أسباب بزوغه	- تضاؤل دور الفكر وجعل كل حوار حواراً عقدياً أو فقهياً. - انتقال مواقع القيادة الفكرية إلى عناصر لم تكتسب الخبرة والتجربة اللازمة في العمل العام. - عدم إدراك القيادة لأهمية البعد الفكري والتناول الحضاري.
رأيه في القضية	- ترف فكري - تهدف لتغير خريطة الولاء للحركة. - خطأ في تشخيص الأزمة. - إضعاف ثقة الجمهور بقيادة الحركة وإظهار إفلاسها وعجزها. - تهديد لتنظيم ونُظم الحركة. - محاولة عقلانية لتقديم بديل عن الحركة. - تهدف إلى التعالي وإظهار الأستاذية.
مداخل التواصل معه	- رغبة الحركات في حسن العرض لقضاياها وتنوع أساليب التقديم، والاطمئنان على كياناتها. - حاجتها للزاد الفكري لمواجهة الخصوم.

الخطاب

شكله	- ربط القضية بحركة الإصلاح الإسلامية. - البعد عن النزاعات الحزبية ومحاور الصراع. - تجنب الكلمات المفتاحية عند الحركة. - إقامة العلاقات الودية مع القيادات. - المشاركة في المجالات والمواسم الثقافية. - مخاطبة الشباب المتعلم.
أهدافه	- تبنِّي الحركات للقضية. - اتساع ساحة الفهم للقضية. - إدماجها للقضية ضمن مشاريعها. - طمأنة الحركات وإزالة المخاوف. - استفادتها من كثير من جوانب القضية.

شكل (5-3)

4- خريجو الجامعات والمدارس الدينية

هذا الفريق يحمل ثقافة تراثية تاريخية من فقه وأصول وحديث ولغة ونحوها، وكثير من فصائله وأفراده يحرصون على أن يكونوا الناطق الرسمي باسم الإسلام، وألفوا أن تكون مشروعية الحديث عن الإسلام وفيه -خاصة في مجال المعرفة والعلم- وقفاً عليهم وخبرة لهم يعتزون بها، والتقدم بها يزحزحهم عن هذا الموضع أو يهمّش دورهم فيه لا يرتضيه بعضهم، بل يتضايقون منه ويقاومونه.

وقضية الفكر وإسلامية المعرفة قضية تشخص أمراض الأمة ومشكلاتها وتصف الاجتهاد والمعاصرة دواءً لها، والاجتهاد أمر قد ينادي به بعضهم، لكنه لا يطبقه أو لا يجرؤ عليه أو لا يملك أدواته. ففي التقليد راحة ودعة، وفي الاجتهاد مسؤولية ونصب، وتعرض لمشاق ومخاطر.

وقضيتنا بعد ذلك تحاول أن تتجاوز أساليب «علم الكلام» القديمة في تقديم الإسلام وعرضه، كما تحاول أن تتجاوز الإطلاق كذلك في المنظور الفقهي الجزئي. فالتناول الكلامي بغير قواعده مدمر، والتناول الفقهي -بغير شروطه- مفرّق. كما أن قضيتنا تصر على ملاحظة البعد الإنساني والزماني والمكاني والكليات والمقاصد والغايات والقيم الحاكمة، وتضع كلاً منها في موضعه وإطاره، وجل هذه الفصائل ترى في الفقه التاريخي كما هو غناءً وكفاية، وترى فيما نطلبه لتحقيق مقاصد قضيتنا تكاليف وأعباء إضافية، لا تطيقها أو لم تؤهل لها، بل سوف تحرجها، فتساعد على إظهار عجزها أو فشلها إن لم تسارع في إكمال أدواتها وتوفير وسائلها، وذلك ليس بالأمر الهيّن، فقد ألفت وضع المسؤولية على غيرها، واختزال القضايا الإسلامية بنصائح ومواعظم وتوجيهات أو فتاوى، المطالب بفهمها والعمل على تنفيذها غيرها، وكأنها تقول للناس دائماً المسؤول عن الانحراف والخطأ والقصور والتخلف سواي، فلو استمع الناس لما أقول ونفذوا ما أريد، لصلح حال الناس في الدنيا ولدخلوا الجنة في الآخرة. أما كيف ينفذ الناس هذا ويحولونه إلى واقع، وما الوسائل والأدوات اللازمة لذلك، وما الخطة العملية لتنفيذه، وكيف تربى الأجيال عليه لتفهمه وتهضمه وتلتزم به، فتلك مسؤولية قوم آخرين.

وحالة كهذه ترى في أي فكر يوزع المسؤولية ويحدد الأدوار، ويضعها أمام مسؤولياتها، ويطالبها بالوفاء بما عليها، فكراً اتهامياً يستجيش في الغالب قابلية المقاومة فيها، ويضعها في صفوف أعداء القضية ومناوئيها، ويمكن خصوم القضية من استغلال مواقفهم ضدها. وتحويل هذه العقبة إلى إمكانية، سيمكن من التعامل مع هذه الطائفة تعاملاً يساعد على تحويل عامتها إلى جزء من القضية وجند لها. فالإخلاص والنقاء هو الصفة الغالبة على هذا الفريق، ويفرحهم ما يرون فيه خدمة للإسلام ما لم يصادم ما سبقت الإشارة إليه من تصوراتهم.

وقضايانا تحتاج إلى كثير من الدراسات الفنية في جوانب تخصصاتهم، ويمكن تجنيد الكثير من الطاقات الشابة الخيرة من بينهم، في مشاريع البحوث والدراسات الفردية والجماعية، وتيسير التراث وإشراكهم في الندوات والمؤتمرات وإجراء الحوار، والاستفادة من بعضهم في المشورة والخبرة فيما يحسنون، وتقديم بعض الخطوات والاقتراحات الملائمة لهم.

وحين يتبينون أن قضيتنا تعطيهم دوراً مهماً مع سائر فصائل أهل الخبرة في الأمة، وأن هذا الدور سوف ينفض عنهم غبار التجاهل والنسيان من ناحية، وينقذهم من الدور الهامشي الذي وضعوا فيه منذ سقوط الدولة العثمانية. هذا التهميش لأدوارهم هو الذي جعلهم موضع استغلال بعض الحاكمين وتلاعبهم، فإن استطعنا أن نوضح لهم أن لهم في قضيتنا هذه دوراً هاماً وأدركوا هذا، فسوف يكون الكثيرون منهم جزءاً من إمكانات القضية والعوامل المساعدة فيها. كما أن الوعي العام الذي سيشيع في الأمة بهذه القضية وأهدافها، سوف يكون عاملاً مساعداً على تحويلهم إلى جانبها.

وقد يفهم بعضهم أو يحاول أن يعتبر أطروحات القضية سلطة جديدة تضاف إليه، لفرض هيمنته على الساحة الثقافية الأخرى (أي ساحة العلوم الاجتماعية والإنسانية)، وهنا لا بد من إيقاف هذا التوجه، والعمل على التوضيح المستمر بالإنتاج العلمي على تبيين الأدوار وتحديدها لسائر صفوف الخبراء، لإزالة هذا اللبس، ودفع هذا الغموض، وحماية نقاء القضية منه،

وتحديد دور كل نوع من أنواع المعرفة تحديداً منهجياً وكذلك أدوار الخبراء فيها.

شكل (5-4)

3- أصحاب التسطيح

لقد قدم القرآن العظيم نفسه إلى الناس على أنه مثال اليسر والسهولة من ناحية، ولكنه معجز في الوقت ذاته، فيسره وسهولته منصوص عليهما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:17]، وتحدى الله -جل شأنه- الناس به وبين إعجازه في آيات عدة، انتهت بإعلان قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الاسراء: 88].

وقضيتنا قضية قرآنية بالدرجة الأولى، تهدف إلى أن تجعل وحي الله تعالى، القرآن العظيم وسنة رسوله ﷺ المبينة له والمبنية عليه، منطلقاً للفكر، ومصدراً للثقافة والمعرفة والعمران والشهود الحضاري، فيجب أن تكون قضية ميسرة سهلة، لا تخاطب النخبة وحدها وتتجاوز العامة، ولا تتعامل مع الملأ، وتهمل الجماهير، بل يجب أن تكتسب صفة اليسر والقدرة على الوصول إلى الأمة كلها، ولذلك وسائل كثيرة لا بد لنا من الوعي بها وممارستها، وفي الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة نماذج لا تحصى للتعريف بهذه الوسائل، فالتيسير عملية تجعل القضية التي يمكن أن تقدم بأعلى درجات التعقيد سهلة ميسرة مفهومة بكل جوانبها، يمكن لمن لا يعرفها مهما كانت ثقافته أن يتصورها، ويدرك سائر أبعادها، لبساطة العرض، وسهولة التناول، وضرب النماذج والأمثلة ونحو ذلك.

وأما التسطيح فهو عملية معرفية تستهدف التعريف بمظاهر الشيء أو السطح الخارجي له، ومن هنا نسبناها إلى السطح. فالموضوع الذي يُعرض عرضاً سطحياً لا يقدم عرضه بذلك الشكل تصوراً كاملاً لسائر أبعاده، بل يصور سطحه الخارجي وحده، وسطح الشيء جزء منه لا كله.

ومحاولات التسطيح لها وسائل يشبه بعضها محاولات التيسير، ومن هنا لا بد من التنبيه على الفرق بين الأمرين، فقد يتوصل إلى التيسير بالاختصار، وقد يؤدي الاختصار إلى التسطيح إن لم يحكم بناؤه. وقد ينجم التسطيح عن الاهتمام بالشكل عن المضمون، وقد يأتي من الرغبة في الاستمالة العاجلة

وكسب التأييد، وقد ينجم عن استعجال الإنتاج والرغبة في وفرته، وقد ينجم عن عوامل أخرى.

والذين يُخشى منهم القيام بتحويل قضيتنا إلى قضية سطحية نوعان من الناس:

* **الأول**: مناوئوها ورافضوها، وهؤلاء يحاولون عرضها عرضاً سطحياً ساذجاً، يهدف إلى تسفيه أحلام أصحابها، وتزهيد الناس بها، وصرفهم عنها، وبيان عدم جدواها. ويمكن أن يمثل لهؤلاء بالدكتور زكي نجيب محمود في مقالته في «الأهرام» المعنونة: «لك الله يا علوم الإنسان». ومقالة مجلة «اليمامة» الصادرة في الرياض في عرض الأساتذة اللادينيين للقضية وعرض سيد ياسين ومحمود أمين العالم، والطيبي، وضياء الدين سردار في بعض ما كتب.

وهؤلاء سوف يحبط محاولاتهم هذه، استمرارنا في عرض قضيتنا بأبعادها المختلفة على الأمة، وربط حلول كثير من الأزمات بها، وضرب الأمثال والنماذج التي تساعد في تعميق الإحساس بالحاجة إليها، وضرورة تأصيل أفكارها بالتقصي العلمي والعمق المطلوب، مثل إصدار بحوث ودراسات تربط بين أزمة التنمية وأزمة الفكر والثقافة في العالم الإسلامي، وأزمة التخلف بكل أنواعه والأزمة الفكرية والثقافية، وإشكالية الوحدة والديمقراطية وحقوق الإنسان وغيرها، ونقد ما يقدمون بشكل موضوعي ومتنوع، بأقلام مختلفة ووسائل متنوعة، فإن ذلك سوف يساعد كثيراً على التوعية بأهمية القضية وعمقها، وتعزيز الثقة بها.

* الثاني: نوع من الناس فهم الإسلام بشكل سطحي، وظن أنه يكفي لأسلمة الشيء أن يكون المقدم له مسلماً، وأن يضعه في إطار خارجي إسلامي، ومثل هذا قد تعجبه مقالة لعلماني أو لا ديني غربي أو شرقي في موضوع معرفي أو حضاري، فيرى أن أسلمة هذه المقالة يكفي فيها أن يرفع كلمة «علماني» أو «غربي» أو أي اصطلاح آخر ليضع بدله «إسلامي» فيختزل عملية «الإسلامية أو الأسلمة» إلى ألفاظ مجردة، ويحولها إلى مجرد إطار أو

شكل أو شعار، غافلاً عن العلاقة الفلسفية والمنهجية والفكرية والنماذج المعرفية بين تناول وآخر، غير متنبه إلى أثر الرؤية العقلية الإنسانية ومكوناتها الفكرية والثقافية في تناول القضايا الفكرية والثقافية، غير متفهم لطبائع المفاهيم وطرائق تفريغها وشحنها، فيضر بالقضية من حيث يظن إنه قد خدمها.

وهذا الداء عرض من أعراض سرطان التقليد من ناحية، والفراغ الفكري من ناحية أخرى. وهؤلاء يسارعون -عادة- بدوافع مختلفة إلى تلقف أية أطروحة تقدم، واختزالها في أشكال وقوالب وألفاظ، وتقديمها نيابة عن أصحابها على أنها القضية كلها. وقد صدرت نماذج كثيرة من هذا النوع لا تخفى عند النظر الدقيق.

ومن المفيد ملاحظة هذا النوع ورصده، والاتصال بمن يظن بهم حسن النية من أصحابه، ومحاولة تجنيد بعضهم في الجانب الإعلامي لهذه القضية إن أمكن، وتقويم تصوراتهم في هذا المقام ببيان أهم مستلزمات ومتطلبات قضية «إسلامية المعرفة» ومتطلباتها، حتى يوالي أصحاب هذا الاتجاه بما يساعد على تعديل أفكارهم، والإضافة إليهما بما يؤدي إلى وضعها على بداية الطريق الصحيح للعمل في خدمة القضية.

أما الذين ينطلقون في عملية التصحيح من منطلق سوء النية لمحاصرة القضية وعزلها، فهؤلاء لا بد من الكشف عما يقدمون من أفكار في هذا المجال، فهم بمثابة مزوّري العملات يقدمون الزائف ليحاصروا الجيد.

شكل (5-5)

obeikandl.com

6- أصحاب التوفيق والتلفيق

إن مجمل عمليات التوفيق والتلفيق الفكرية والمعرفية تصنف ضمن التوجه الذي ذكرناه والمسطح للقضية المعرفية، إلا أنه يلزم التنبيه إلى مستويات ثلاثة من هذه العمليات:

أ- المستوى الأول:

التلفيق وفق «الإطار المرجعي الغربي» دون الوقوف عند الأسس والقواعد والكليات الأساسية، التي يجب أن تحكم عمليات التوفيق حين يكون ضرورة لا بد منها. فالفرق جد كبير بين التلفيق والتوفيق. وفي هذا المستوى ينتقى صاحبه من الإسلام وتراثه وحضارته ما يخدم أفكاراً مسبقة «أيديولوجياً» أو يضم إليها قسراً.

هذه العملية تبدو خطورتها في ممارسة عملية التغريب وفق لغة تدعي قراءتها للتراث، وتدعي فهمه والوعي على سياقه التاريخي، وتطبيق مناهج غربية حديثة على الإسلام ومصادره. وبالرغم مما يبدو عليها في الظاهر من رصانة ومنهجية، إلا أنها في حقيقتها. لا تملك من المنهج إلا صورته وشكليته، لا أصوله وجوهره، كما أنها تتخطى مجموعة من التناقضات الأساسية بين «الإطار المرجعي الإسلامي» من ناحية، و«الإطار المرجعي الغربي» من ناحية أخرى. علاوة على ذلك، فإنها لا تحاول أن تبحث فيما يمكن تسميته باللياقة المنهجية. إن جاز هذا التعبير. بحيث تقحم مناهج على الدراسات الإسلامية لا تصلح ابتداءً لدراستها، كما أنها تهمل في الوقت نفسه أصولاً منهجية استقرت في التراث الفكري الإسلامي مثل علم أصول الفقه، وأصول آداب البحث والمناظرة.

ب- المستوى الثاني:

يدبج هذا المستوى عمليات التلفيق وفق «إطار مرجعي تراثي» دون الفطنة إلى فقه الواقع وأهم معطياته المتجددة، غير مكترث بعلم الفروق، وهذه الرؤية فرع على موقف متكامل من هذا الفريق، يقدس التراث -على الجملة-

مفترضاً فيه العصمة أو الأفضلية المطلقة، ويؤكد أنه يمكن إعادة النماذج التراثية في واقع اليوم بحذافيرها، لا الوقوف عند مجرد طرائق رجالاتها وأساليبهم في مواجهة وقائعهم آنذاك. وسطحية هذه العملية تأتي من فشلها في الاستجابة أو الإجابة عن مشكلات الواقع، والوقوف عند حد الاجترار التراثي دون أدنى درجات الوعي بالتاريخ والتراث، أو الوعي بالحاضر والمستقبل.

ج- المستوى الثالث:

أما المستوى الثالث، فإن تلفيقه للفكرة يأتي من باب حسن النية، والتعجل في تقديم الحلول، بخاصة أن عملية «إسلامية المعرفة» ما زالت في بواكيرها وفي مرحلة التأصيل، إذ لم يتم تأصيل كل جوانبها من فكر ومعرفة ومنهج، وأن ما قدمته ما يزال في شكل مجموعة من الأفكار والمبادئ والخطط، لم يتم اختيار كثير منها بشكل دقيق كامل في إطار أكاديمي أو حركي، وإن بدأت في ذلك خطوات. ووفق هذا التصور فإنه يجب استمرار الجهود التأصيلية لاستكمال قواعد الفكرة الأساسية، وبيان أهم عناصرها بدقة، وأن توالى بإضافات مبدعة في هذا المقام، كما أن عليها الاستكتاب في هذه القضية بشكل أصيل ممن له جهد بارز في العمل الفكري والقدرة عليه، فضلاً عن تمتعه بالوعي بحقيقة الخريطة الفكرية في العالم الإسلامي، والوعي بالفكرة شكلاً وروحاً ومظهراً وجوهراً.

فمن المقطوع به أن المواد المتوفرة في قضايا الفكر وإسلامية المعرفة ليست بالقدر الذي يمكن من اعتبارها مواد كافية أو نهائية. يتوقف بعض هذا الفريق ممن يتبنون الفكرة عند حد شرحها واختصارها أو التلفيق فيما بين أفكارها وبحوثها الاختبارية الأولية، فلا شك أن ذلك يعتبر جزءاً من عملية التسطيح والتلفيق الخطيرة، وبالرغم من أن هذا الفريق قد مارس ذلك عن حسن نية، رغبة منه في الإسراع في نشر الفكرة، وإخراج كم من البحوث والموضوعات في هذه القضية، إلا أن اتجاه قضية الفكر وإسلامية المعرفة يسعى إلى توازن دقيق بين الكم والكيف في النتاج البحثي والفكري، ويؤكد على الاهتمام بالإنتاج النوعي المتميز، بخاصة مع وجود تيارات تحاول

التلفيق، سواءً كانت تلك التيارات تراثية أو تغريبية.

ومن هنا لا بد من أن تستمر الجهود للعثور على الأكفاء القادرين على العطاء الفكري والثقافي المتميز في هذه المجالات، وبلورة الأفكار والخطط، وبناء قواعد القضية، والوعي بتوجه «إسلامية المعرفة» المنهجي وبطبيعة نتاجه المبكر، من حيث كونه نتاجاً تجريبياً قابلاً لمزيد من التأصيل والإضافة والحذف، والكثير من المراجعة المتأنية والمتفحصة وفق معايير منهجية منضبطة، تستلهم أصول الشرع وقواعده ومقاصده الحاكمة الأساسية، كما تعتبر الواقع وأهم معطياته -دونما خضوع له أو لضغوطه- الاعتبار اللائق به.

وقضية الفكر و«إسلامية المعرفة» بهذا الوعي بالأهمية النوعية لنتاجها الفكري، وتجريبية إنتاجها في مرحلتها الأولى، تستطيع أن تحقق مع تكثيف الجهود إمكانات متميزة في المجال الثقافي والمعرفي والفكري والحضاري. وتستطيع من خلال متابعة ورصد كل الترجهات التي تحاول تسطيح القضية، سواءً أكان ذلك من داخلها أم من خارجها، أن تقيم بنيانها على أسس راسخة تتسم بالوعي الحقيقي والعطاء المتجدد والالتزام المنهجي، والرؤية المعرفية.

obeikandl.com

المخاطَب

أصحاب التوفيق والتلفيق

مواصفاته	- الانتقاء من الإسلام وتراثه وحضارته ما يخدم أفكار مسبقة. - لا يملكون من المنهج إلا صورته وشكله لا أصوله وجوهره. - يتخطون مجموعة من التناقضات الأساسية بين الإطار المرجعي الغربي والإطار المرجعي الإسلامي.
أسباب بزوغه	- تقديم التراث وافتراض العصمة فيه. - الإيمان بإعادة النماذج التراثية إلى الواقع بحذافيرها.
رأيه في القضية	- (أنظر الورقة 5)
مداخل التواصل معه	- (أنظر الورقة 5)

الخِطاب

شكله	- نقد موضوعي لما يقدمون. - إبراز أعراض داء التقليد وويلاتها على الفكر والمجتمع. - الاهتمام بفقه الواقع وأهم معطياته المستجدة. - عرض النماذج الأصولية بأسلوب شامل وسهل.
أهدافه	- بناء قواعد القضية لديهم. - بلورة أفكارها عندهم. - تشجيع الأكفاء القادرين على العطاء.

شكل (5-6)

7- العــوام

ألف المتعلمون من أبناء الأمة النظر إلى رجل العامة أنه قاصر لا ينبغي أن يخاطب خطاباً فكرياً أو ثقافياً، لأنه دون مستوى ذلك، وأنه لا يفهم إلا أنواعاً محددة من الخطاب لا يتقنها المفكرون والمثقفون، فتجاوزه الخطاب الفكري والثقافي المعاصر الصادر عن مختلف الفئات. وبعض الهيئات اختزلت خطابها الموجه له إلى شعارات فقط، أو ما يشبه الشعارات من ألوان الخطاب، مما زاد في هبوط مستوى رجل العامة فكرياً وثقافياً في بلاد المسلمين كافة، وسادت الأمية الصريحة المشوبة بشيء من المعرفة في المجتمع، وانتشر الدجل والخرافة والشعوذة بكل الأنواع. وتلك بعض آثار فتنة التقليد، وإيقاف الاجتهاد، وتجميد العقول. وإذا كان علماء الأمة وعقلاؤها قد تحولوا بعد فتنة التقليد والقضاء على الاجتهاد إلى عقلية العوام، فإلى أي شيء يتحول العوام أنفسهم؟!

ومن هنا فقد شاع لدى العامة وأنصاف المتعلمين ازدراء الفكر، والهزء بالثقافة والتقليل من شأنها، والنظر إلى الفكر وإلى الثقافة على أنها نوع من الترف من حق الأغباء والمترفين فقط أن يمارسوه، أما الضعفاء الكادحون فلا يجدر بهم ذلك ولا يليق، وإذا رغب أحد منهم فيه فلن يجد خطاباً موجهاً إليه ومفهوماً عنده، لأن الخطباء تجاوزه بخطابهم، وأسقطوه من حسابهم.

وهذه غفلة بالغة عن مفهوم التكليف ومناطه، وعن طبيعة الخطاب القرآني وتوجيهاته، فالقرآن العظيم خطاب للغافلين ليتنبّهوا، وللضالين ليهتدوا، وللكافرين ليؤمنوا، وللمنافقين ليخلصوا، وللعمي ليبصروا، وللتائهين ليرشدوا، وللمؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

والعاميّ لا يعدو أن يكون واحداً من هؤلاء، ومناط التكليف والخطاب لم يحدد بمواصفات ثقافية، أو مستوى تعليمي، أو شهادة جامعية، بل هو خطاب عام شامل لكل مكلف، وهو الإنسان البالغ العاقل. لذلك فإن قضايا الثقافة، وقضايا الفكر بخاصة، لا تستثني العامي من الخطاب، ولا تسد في وجهه الباب للنهل من معين الفكر، والورد من منهل الثقافة.

ومهمتنا أن نضع هذه القضايا المعرفية في إطار مفهوم لجميع الفصائل، وفي مادة يمكن لسائر قنوات التوصيل للأفكار أن تتعامل معها. ونحن نرى أنه من الممكن عرض جوانب الأزمة الفكرية كافة وقضايا الفكر على الإنسان المسلم بمختلف الأساليب، ومن هذه القضايا على سبيل المثال؛ سوء فهم قضايا القدر والجبر والاختيار والفعل الإنساني، وكرامة الإنسان ومكانته، والعلاقة بين الأسباب والمسببات، وعدداً من الأمور التي كلف الإنسان المسلم بفهمها وإدراكها. والقرآن الكريم الذي تحدى الله تعالى فيه الجن والإنس على أن يأتوا بمثله في نظمه وأسلوبه وبلاغته، يسره للفهم والتدبر والتفكر والفقه: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الاسراء: 20]، ولربما كان من أهم وجوه إعجاز القرآن، الجمع بين اليسر في الفهم والإمتاع في الأسلوب.

ومن هنا فإنه ليس لنا أن نلتمس لأنفسنا العذر، ولا أن نلقي بالمعاذير في تعقيد خطابنا أو إبهامه، بحجة أنه خطاب للنخبة، فلرب مبلغ أوعى من سامع، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإذا استصعب الناس خطابنا أو لم يفهموه، فأنفسنا يجب أن نلوم، لا عقولهم وأفهامهم، وعلينا أن نجتهد في تعديل أساليب الخطاب ومراجعته المرة تلو المرة، حتى نتجاوز أزمة التخصص بمخاطبة الملأ أو النخبة المثقفة وحدها.

وسوف يحاول خصوم القضية والرافضون لها أن يستثيروا رجل العامة ضد قضيتنا، وسوف يصورونها له على أنها جزء من محاولات تستهدف إشغال الناس عن همومهم وقضاياهم الآنية الجادة، ولكننا لن نعدم وسيلة لربط مصالحهم وقضاياهم بإصلاح الفكر وتجديده، وبناء النسق المعرفي الإسلامي، ولن تعجزنا الأمثال نضربها لهم على ذلك لنحصل على قناعتهم، ولن نعدم الوسائل لتبني مصالح الجمهور وهمومه وتفسيرها، واقتراح الحلول لها من منطلق فكري ثقافي إسلامي ومنظور حضاري، فذلك كله ميسور إن شاء الله تعالى إن خلصت النوايا، واجتهدت العقول، وتواصل العمل، وأمكن تقديم قضيتنا في إطار نموذج تفسيري مرن، قادر على الاستيعاب. ولا ينتظر من العامي أن يتحول إلى طاقة إنتاجية في هذه الأمور، بل يكفي أن

يعرفها -على الجملة- ليتعاطف معها، ويتفاعل مع ما يمكن من قضاياها، ويرفع مستوى اهتمامه بها ومن خلالها، ليتحلى بنوع من الفاعلية والإيجابية تجاه قضايا الأمة؛ فإن الأصل في الأفكار الحية الفاعلة أن تكون قادرة على الوصول إلى سائر المدركات الإنسانية على اختلاف مستوياتها.

شكل (5-7)

8- الطالب الجامعي

إن الطالب المسلم يبدأ مرحلته الجامعية غالباً في وقت لا تتجاوز الرؤية الإسلامية لديه معرفة قليلة بالإسلام، يكون قد نالها في البيت أو في مراحل التعليم الأولية أو منها جميعاً. ومن الواضح أن هذا القدر من المعرفة الإسلامية، لا يشكل رؤية إسلامية أو فكراً إسلامياً لديه، ولا يحقق له حقيقة الانتماء الإسلامي الذي يصونه من التأثر والتغير.

وهكذا يبدأ الطالب مرحلة التعليم الجامعي وفكره خالٍ تماماً من هذه الرؤية، ومنفتحٌ لأية تأثيرات، وقد يبدأ دراسته وفي داخله بعض المشاعر أو العواطف الإسلامية، ولكن تعوزه الأفكار الإسلامية. فالمشاعر -إن وجدت- لا تصمد أمام الأفكار والحقائق والأحكام المتصفة بما يسمى بـ«الموضوعية» التي تقدمها له الفروع الإنسانية والاجتماعية التي يدرسها من المنطلق الغربي المحض، والرؤية الغربية بكل مركباتها.

ومن الواضح أيضاً أن هذا الطالب لا يملك وسائل الدفاع ولا الرؤية التي تمكنه من مجابهة هذا المستوى من التصور، ويفتقر إلى جزء ولو يسير من العقيدة الإسلامية الحية، التي تتضمن منطلقاً لأفضل الأفكار المتعلقة بالمشاكل التي قد تواجهه. وعلى المستوى الفكري يواجه الطالب الجامعي في العالم الإسلامي العقائد والفلسفات الغربية، التي قد تقدم له مع دفاع هزيل يائس عن الإسلام، إذ لا توجد مؤسسة أكاديمية في العالم الإسلامي الحديث يدرس فيها الفكر الإسلامي وتعمق فيها الرؤية الإسلامية بالقوة نفسها والأداء الذي تدرس بهما الأفكار والرؤية الغربية لطلبة الدراسات الثانوية والجامعية في الغرب، أي يترابط وشمولية وجدية والتزام من قبل الجميع.

وقضية «إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة» تنظر إلى الطالب المسلم على أنه مستقبل الفكرة وحاميها، بعد الوعي بها، والمواصل لتأصيلها، والضمان الأساسي لتجديدها وتجددها. والطالب في مشروعنا الإصلاحي لا ينفصل بحال عن الأستاذ والمنهج والإطار الأكاديمي لعملية التدريس والتعليم، بل هو في تفكير توجه الإصلاح الفكري وإسلامية المعرفة حجر

الزاوية، وأن جهودنا مع الأستاذ وجهودنا في المنهج الدراسي ليست إلا وسائل لبنائه وإعادة تشكيله، فالطالب المسلم القادر على الوعي بالفكر وتبنيها وهضمها وإشاعة الوعي بها، هو المكافح عنها، بل والموصّل لها، والممثل لها على المدى القريب والبعيد.

المخاطَب

الطالب الجامعي

مواصفاته	- فكر خال من الرؤية الإسلامية. - متفتح لأية تأثيرات. - يمتلك بعض العواطف الإسلامية لكن تعوزه الأفكار الإسلامية. - يفتقر إلى " العقيدة الإسلامية ".
أسباب بزوغه	- اعتماد معرفة تستبعد الوحي. - الابتعاد عن تعاليم الإسلام. - تقليد وتكريس لحالة التبعية الفكرية الثقافية للغرب.
رأيه في القضية	- استعداد لقبول مشاريع حل الأزمة من خلال معايشته للبطالة المقنعة والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية.
مداخل التواصل معه	- رغبته في معالجة الأزمة. - رغبته في منافسة الغرب. - رغبته في العمل على النهوض الحضاري.

الخِطاب

شكله	- إشاعة الوعي بالأزمة. - توضيح الرؤية الإسلامية للمجتمع. - تنمية الحس الإسلامي العلمي.
أهدافه	- تكوين الكوادر العلمية القادرة على العطاء. - إثارة اهتمام الطلبة الجامعيين بالقضية وإشراكهم في حمل الأعباء. - توجيه الرسائل الجامعية العملية فيما يخدم القضية.

شكل (5-8)

ولذلك فإن علينا رصد الطاقات المتميزة من هؤلاء الطلاب في مجالات اهتمامنا، بخاصة طلبة الدراسات العليا، والمتخرجون الجدد من مستوى الدكتوراه، وإعدادهم فنياً في حقول المعرفة التي تخصصوا فيها، ويرغبون في استكمال أدواتهم وقدراتهم في المعرفة الإسلامية، أو في الدراسة العلمية لمفاهيم قضايا الفكر وإسلامية المعرفة على يد الأساتذة المتخصصين، الذين يضمهم برنامج «إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة» من المعهد والمتعاونين معه، والمتبنين لهذا الاتجاه المعرفي.

9- الباحث والأستاذ الجامعي (الإطار الأكاديمي)

الجامعات والمعاهد ومراكز البحث في عالمنا الإسلامي، هي بوضعها الحالي عقبة، ويمكن أن تكون إمكانية، وهي اليوم بمشاكلها وقضاياها معضلة كان ينبغي أن تكون حلاً. فالجامعات في الغرب وسيلة كبرى لتوليد الفكر الغربي وحمايته وتصحيحه، وأداة لبناء النسق الثقافي الغربي وتدعيمه، ومختبر لدراسة المشكلات الاجتماعية وتحليلها وتقديم الحلول لها، ومصانع للفكر والثقافة، وقنوات لتوصيلها إلى الأمة.

ويوم فتحت الجامعات في عالمنا الإسلامي كان ذلك تقليداً وتكريساً لحالة التبعية الفكرية الثقافية للغرب في الشكل والمحتوى، وبالرغم من التوسع الهائل الذي حدث في هذا الإطار الأكاديمي، والزيادة الكبيرة في عدد الجامعات والمدارس والمعاهد المغذية لها بالطلاب، فإن وضع الدراسات الإسلامية فيها في أسوأ حالاته، فعلى صعيد إسلامية التعليم ومناهجه، نجد المدارس والكليات والجامعات التي أقيمت على النمط الغربي تأخذ بنظرية معرفة تستبعد الوحي من أطرها المرجعية ومصادرها المعرفية، بل تنظر إليه وإلى ما ينبثق عنه من معرفة على أنها خرافة، أو معرفة غير علمية في أحسن الأحوال، مما أدى إلى انحراف الغالبية العظمى من الشباب، وابتعادهم عن تعاليم الإسلام.

وأما الأطر القائمة على تدريس العلوم النقلية المعروفة بـ (العلوم الشرعية) ووسائلها، فقد حصرت مواردها في الأوقاف التي تركها الآباء والأجداد، ولم

تسلم هذه الأوقاف من اعتداء الخلف عليها، فذهب معظمها ضحية الإهمال أو الاستيلاء الفردي أو الرسمي، فزاد ذلك في عجزها عن أداء دورها، كما حرم خريجوها من المزايا التي يمكن أن تشجع من يأتي بعدهم على الانضمام لهذا النوع من التعليم.

أضف إلى ذلك أن المناهج الدراسية التي تقدم في تلك الجامعات والمدارس تمثل في معظمها ثقافة تراثية مما ترك الآباء والأجداد، من العسير جداً أن تؤدي إلى إيجاد العقلية المسلمة المجتهدة القادرة المعطاء، التي كانت ينابيع المعرفة الإسلامية توجدها من قبل، ولا تزال تملك القدرة على إيجادها لو استقام الناس على الطريقة.

وأما القدرات المتميزة النادرة من الخريجين من هذا النوع من الأطر أو من النوع الآخر، فإنها لا توجد إلا بمبادرات فردية وجهود خاصة بعد توفيق الله تعالى. ولقد أصبحت هذه الأطر بشقيها اللاديني التغريبي والنقلي - التراثي دليلاً صارخاً على أزمة الثقافة والمعرفة لدى الأمة، وتكريساً لحالة الغياب الثقافي، حيث أصبحت الدراسات العالية بخاصة، مصدر أزمات جديدة للأمة، بعض هذه الأزمات خطير كأزمة الشقاق والفصام بين فصائل الأمة، ونشوب ألوان جديدة من الصراع في صفوفها بين المتعلمين للعلوم الاجتماعية الغربية والمتأثرين بهم، وحملة العلوم النقلية، فلم يعد شعب من الشعوب المسلمة قادراً على الوقوف صفاً واحداً تجاه أية قضية من القضايا؛ لانشطار نخبته وتمزقها، وقد يكون من أخف الأزمات تلك البطالة السافرة والمقنعة، وما أدت إليه من تعقيدات اقتصادية واجتماعية.

وقد فشلت الأطر الأكاديمية المتنوعة في تلبية الحاجة الثقافية، ولم تستطع أداء دور يذكر في ذلك، إذ لم يتمكن المسلمون فيما يقرب من قرنين من التعليم اللاديني القائم على النموذج الغربي، أن يحققوا تقدماً أو يبدأوا نهضة حقيقية، فهم لم يستطيعوا أن يؤسسوا لحد الآن مؤسسة أكاديمية تخرج من أبناء المسلمين منافسين لأمثالهم الغربيين في الإبداع والتفوق، والتعامل مع قضايا مجتمعهم بالكفاءة والفعالية المطلوبة.

أما مشكلة المستويات المتدنية في الإطار الأكاديمي في جامعات العالم الإسلامي ومعاهده فيصعب حلها بالطرق ذاتها التي تعالج بها الأمم عادة مشكلاتها المماثلة لأنها نتيجة حتمية لانعدام هذه الرؤية، وفقدان النموذج؛ فلا يوجد بحث حقيقي عن المعرفة دون نظرية معرفية منبثقة عن عقيدة الأمة أو متفقة معها، لا تعارضها كحد أدنى، وهذه النظرية كالروح، لا يمكن نقله من جسم آخر غريب، ولا يمكن تقليده، أو استنباته من زروع الآخرين.

والتعليم في العالم الإسلامي إجمالاً، والإطار الأكاديمي بخاصة، يفتقر إلى هذه الرؤية. فقياداته في البلاد الإسلامية لا تملك رؤية الرجل الغربي، كما أنها فقدت طواعية الرؤية الإسلامية بسبب الجهل والكسل وفقدان الهدف والدافع.

أما الزعامة التربوية في العالم الإسلامي فقد اتسمت بالمادية، وافتقرت إلى المعرفة الحقيقية والهدف الواضح. فجمهرة المدرسين والأساتذة الذين تعلموا في الغرب العلوم الإنسانية والاجتماعية بخاصة، لم ينطلقوا -في الغالب- في دراساتهم من غاية إسلامية. بل كانت الدوافع في الغالب مادية، وهذه الدوافع أقل من أن تدفع الطالب إلى الكفاح والاجتهاد الجاد، للحصول على المعرفة التي تفتقر الأمة لها، ولذلك لم يستطع هؤلاء الخريجون أن يقدموا ما قدمه نظراؤهم الغربيون لأمتهم، ولم يتمكنوا من هضم ما تعلموه وتمثله، ولم يسعوا أو يحاولوا صياغة إسلامية المعرفة المنبثقة عن الرؤية الإسلامية للمعرفة والحقيقة والإنسان والوجود.

إن غالبية الخريجين انخرطوا في الدراسة الجامعية الغربية لمجرد الحصول على الشهادة للعودة إلى الوطن بها، والمرور من خلالها إلى مركز اجتماعي، ومرتب مناسب. أما المواد والمناهج التي تدرس حالياً في جامعات العالم الإسلامي فهي نسخ غير مطورة من المواد والمفاهيم الغربية، وإذا امتازت عليها بشيء فإنها تمتاز عليها بفقدان الرؤية التي أدت إلى نجاحها في الغرب -في المنظور الغربي- إضافة إلى فقدانها للرؤية الإسلامية. فكانت أداة تعليم قاصر أو ضار في بعض الأحيان، خاصة بالنسبة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

التي تؤدي في الغالب إلى إبعاد الطلبة المسلمين عن جذورهم وحضارتهم، وتفقدهم هويتهم، دون أن تؤدي إلى تمكين الأمة من اجتياز حاجز التخلف - كما قيل- في مسوغات نقل تلك المؤسسات ومحتواها عن الغرب في البداية.

والكارثة الكبرى التي تواجه هذا الإطار الأكاديمي، هي بالتأكيد افتقار الأساتذة على مستوى غالبيتهم إلى الرؤية الإسلامية والمنظور الإسلامي والحس الإسلامي العلمي.

ذلك هو الإطار الأكاديمي الذي يعتبر الحقل التجريبي الأول لقضيتنا الإسلامية في إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة. إن هذا الإطار في مجمله أستاذاً وطالباً ومنهجاً غير موات مطلقاً لذلك، وتغيير هذا الإطار وإصلاحه بشكل كامل من أهم أهداف قضيتنا. ومن ثم فإن إدراك حقيقة هذا الإطار الأكاديمي، وكيفية التعامل معه أولى الخطوات اللازمة لإحكام توجه قضيتنا في الفكر والمعرفة. وهذا الإدراك هو الذي يشكل التحدي المباشر.

إن البرامج الثقافية للأحزاب والحركات والجمعيات والجماعات، التي نشأت في عالمنا العربي والإسلامي، حاولت أن تسد الفراغ في التعليم الرسمي؛ لكنها لم تحقق تقدماً على مستوى الأمة، لأنها كانت تركز على الثقافة التي تساعد على تكريس المتعلم لقضيتها الخاصة، ومنظورها الحزبي أو الحركي الخاص، وذلك النوع من المعرفة لم يملأ ذلك الفراغ، ولم يسد تلك الحاجة.

فمن المهم أن يشيع الوعي على أزمة الأمة في هذا القطاع حتى تتخلص من ذلك الربط الخاطئ، الذي استقر في أذهان الكثيرين، بين هذا الإطار في وضعه الغربي التقليدي وعملية التقدم والتجديد والنهضة. فنحن ندرك أن الإطار الأكاديمي في مجمله أستاذاً ومنهجاً وطالباً في حاجة إلى التقويم والإصلاح، وعلينا أن نقوم بواجبنا على مستويات ثلاثة، وأن نستثمر جميع الإمكانات المتاحة أقصى استثمار ممكن ورشيد فيها جميعاً. ففي هذا الصدد، يمكننا أن نقوم بما يلي:

أولاً: على مستوى الأستاذ

1- تكوين الكوادر العلمية القادرة على إيجاد وسائل التفرغ العلمي، في إطار المشروعات العلمية التي تخدم قضايا الفكر والمعرفة، وتساعد على تأصيلها وتوثيق الصلات في هذا القطاع والتفاعل مع العناصر الخيرة فيه والتعاون معها، وإثارة اهتمامها بقضيتنا وإشراكها بحمل أعبائها.

2- تكوين فرق البحث الجماعية لدراسة موضوعات فكرية وثقافية وتربوية، تساعد على رصد الخريطة الفكرية والثقافية للعالم الإسلامي ومسحها وتقويمها، وتحقيق الوعي المطلوب لديهم الذي يجعلهم كوادر لهذه القضية.

3- الدعوة إلى ندوات متنوعة لمناقشة قضايا الأمة وأزمتها الفكرية والمعرفية، وبناء نسقها الثقافي في محاولة لإيجاد اهتمام لديهم بما يطرح، ومناقشته والحوار فيه مع ما يقدم في هذه الندوات من بحوث جيدة، تشكل رصيداً في تأصيل النسق الثقافي الإسلامي المنشود وبنائه ومعالجة الأزمة الفكرية.

كل ذلك سوف يساعد على مستوى الأساتذة في تقديم الأفكار المساعدة على معالجة الأزمة الفكرية، وبناء النسق الثقافي الإسلامي، سواءً أكان ذلك في قاعات الدرس والمحاضرة، أم في الدراسات العليا لإرشاد الطلاب إلى اختيار موضوعات تساعد على الإنجاز في هذا الحقل المعرفي الجديد، على درجتي الماجستير والدكتوراه في مختلف تخصصات الدراسات الفكرية والاجتماعية والإنسانية.

ثانياً: على مستوى المنهج

إن أهمية المنهج الدراسي في الإطار الأكاديمي لا مراء فيها، وغلبة المناهج الدراسية الغربية -العلمانية- اللادينية على هذا الإطار تفرض تحدياً، يواجه عمليات الإصلاح الفكري، والتبديل المعرفي والثقافي، والجهود القائمة عليها لإعداد العالم المسلم والمثقف المسلم، وإصلاح الفكر الإسلامي، وبناء العلوم الاجتماعية الإسلامية (علوم الأمة)، وتحقيق إسلامية

المعرفة، وتشكيل المشاريع البحثية الأساسية، سواءً بحوث مشاريع دراسة الفكر الغربي والإنتاج المعرفي المعاصر، أو مشاريع التراث الإسلامي وبحوثه، تعتبر وسائل لا بد منها لتمكيننا من الوصول إلى بناء المناهج، وتأسيس المطلوب لدى المتعلم والأستاذ، سواءً الوعي بالتراث والماضي، لتمكين المثقف المسلم من إقامة الصلة بينه وبين جذوره التراثية، أو الوعي بالثقافة والحضارة المعاصرة، واتخاذ موقف نقدي حيالها، تمهيداً لتوجيهه نحو الاستقلالية الفكرية والنفسية.

ولا بد أيضاً من الوعي بالواقع الفكري في العالم الإسلامي حتى يسهل حصر التوجهات الفكرية، ونقد أهم توجهاتها الأساسية وتقويمها. فعملية بناء مداخل أساسية للعلوم الإنسانية المختلفة، تشكل خطوة مهمة وعاجلة، لتتوافر هذه المداخل والمبادئ للعلوم الإنسانية والاجتماعية، وتقدم نموذجاً مجسداً قابلاً للتجريب في المؤسسات الأكاديمية، وقادراً على تمثل وتمثيل فكرة (التبديل الثقافي وإسلامية المعرفة). كما ينبغي أن يرافق هذا إنتاج مستمر يتراكم في محاور أساسية تشكل القاعدة للتفكير الواعي بقضيتنا، وهي: محور الفكر ومحور المنهج ومحور العلم والمعرفة ومحور الثقافة والحضارة، ومحور التراث.

ثالثاً: على مستوى الطالب

يعتبر طلاب الدراسات العليا اللبنات الأساسية لخطتنا في الإصلاح الفكري وتحقيق إسلامية المعرفة وبناء كوادرهما، فيلزمنا العمل على معرفة العناصر النابهة من الخريجين الجامعيين واختيارهم من مختلف الاختصاصات الاجتماعية والإنسانية، ليكونوا كوادر علمية ذات اختصاص رفيع، تتميز بالقدرة والتفوق العلمي والمعرفة الإسلامية. كما يلزمنا العمل على توجيه رسائلهم العلمية، لتكون ضمن محاور قضية «إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة»، ولتساعد في بلورة مفاهيمها وتطبيقاتها العلمية المعاصرة، ويتم ذلك عبر خطاب رصين متكامل هادف، يصاغ بطرائق متعددة أهمها:

1- إقامة الدورات التدريبية لهم في موضوعات وقضايا تعرّف بقضيتنا

وأهم مبادئها العامة وخطة عملها، وضرورة الوعي بها والعمل على إشاعة ذلك الوعي على أوسع نطاق، كما ينبغي إعداد ما يلزم لإقامة دورات متخصصة في مختلف الفروع والعلوم الإنسانية والاجتماعية لطلاب الدراسات العليا، سواءً في المعهد أو في فروعه ومكاتبه، حسب اعتبارات المكان، والقدرة على الاستعانة بخبرات وقدرات وكفاءات تقوم بالتدريس في هذه الدورات من منظور إسلامي.

2- تقديم القروض والمساعدات الدراسية للأذكياء والنابهين من أبناء الأمة، الذين لا يجدون النفقة اللازمة لمواصلة الدراسة، فضلاً عن منح قصيرة الأجل لجمع معلومات خاصة في أهم الموضوعات التي تهم عملية الإصلاح الفكري وإسلامية المعرفة ومحاورها.

3- تيسير المشاركة للنابهين والأذكياء في الندوات الفكرية للمعهد التي تعقد بصفة دورية، وتكون هذه المشاركة بتقديم البحوث الجيدة في موضوع الندوة أو المشاركة في المداولات، فذلك يحقق لهذه الكوادر درجة عالية من التدريب وتوسيع الآفاق، والقدرة على المشاركة في الحوار والنقاش بشكل فعال، قادر على تبيين الفكرة وقضاياها ومحاورها، وإثارة المواضيع الجديرة بالبحث والتبني.

وبهذه المحاولات وتطويرها نتمكن من تحويل الإطار الأكاديمي إلى إمكانية ووسيلة فعالة لخدمة قضيتنا، وتحويلها إلى واقع إن شاء الله تعالى.

المخاطَب

الأستاذ الجامعي

مواصفاته	- لا ديني تغريبي: يعتمد منهجاً وثقافة مكرسة لحالة التبعية الفكرية والثقافية للغرب. - نقلي تراثي: يعتمد ثقافة تراثية غير قادرة على إيجاد العقلية المسلمة المجتهدة.
أسباب بزوغه	- غياب أية منافسة للمشروع الغربي. - قصور المناهج التعليمية عن إيجاد الإطار المسلم الفاعل. - الافتقار إلى الرؤية الإسلامية.
رأيه في القضية	- (حسب انتمائه لأحد الأنواع السابقة).
مداخل التواصل معه	- رغبته في التفرغ العلمي. - استعداده للمشاركة في العمل الفكري والثقافي.

الخِطاب

شكله	- اتخاذ موقف نقدي بناء من مشروع الفكر الغربي وتشجيع الاستقلال الفكري. - إبراز قضايا الأمة وأزمتها الفكرية ومناقشتها. - التركيز على توضيح الأفكار المساعدة على بلورة المناهج وتوجيه البحوث.
أهدافه	- حصر التوجهات الفكرية ونقدها وتقويمها. - تكوين فرق البحث لدراسة موضوعات فكرية وثقافية وتربوية. - توثيق الصلات مع العناصر الجامعية الفاعلة والخيرة.

شكل (5-9)

obeikandl.com

المواصفات العامة للخطاب

في طبيعته

- لا يخاطب النخبة وحدها ويتجاوز العامة.
- لا يتعامل مع الملأ ويهمل الجماهير.
- لا يسعى لاستقطاب الجماهير.
- لا يسعى لتشكيل قواعد تنظمية.
- لا يقدم نفسه بديلاً عن الحركات الإسلامية والأحزاب.
- يتجاوز الإطلاق في المنظور الكلامي في تقديم الإسلام وعرضه.
- يتجاوز الإطلاق في المنظور الفقهي الجزئي.
- يصر على ملاحظة البعد الإنساني والزماني والمكاني والكليات والمقاصد والغايات.
- يتجاوز التناول العقدي المنزلق حتماً إلى قضايا التكفير.
- يتحاشى منزلق التكفير والحكم على الناس.
- يتحاشى اختزال الإصلاح إلى فتوى وحكم، بل يراه قضية ومعالجة.

في شكله

- يهدف أساساً لسد ثغرة الفكر والمعرفة والثقافة.
- يسعى لتزكية وسائل الأمة ويعينها ويساعد المخلصين على إنقاذها.
- يعمل على تأكيد المرابطة على ثغر القضايا الفكرية والمعرفية والثقافية والحضارية.

في وظيفته

- يتميز ببساطة العرض وسهولة التناول.
- يكتسب صفة اليسر والقدرة على الوصول للأمة كلها.

شكل (5-10)

شروط في حق المخاطب

1. عدم التوقف عن العمل ومواصلة العمل قبل:
   - إيجاد الوعي الضروري بالقضية.
   - بناء مجموعة كوادر كافية لإنجاز المراحل الضرورية.
   - توفير المادة اللازمة لمساق دراسي ناجح.
   - إعداد المحاضن من جامعات ومعاهد ومراكز.
2. عدم التوقف عن التقويم والمراجعة والنقد المستمر لمسيرة المعهد.
3. اجتناب الأحادية أو اعتبار ما يقدمه المعهد هو وحده الحل للأزمة أو التحزب والتكتل أو الاستجابة لعملية الاستقطاب
4. اجتناب اختلاف الأطروحات في مجال مبادئ القضية ومقاصدها والانطلاق من قاعدتين:
   - ⊙ جعل الوحي والوجود مصدرين أساسين للفكر والثقافة والمعرفة والحضارة.
   - ⊙ النظر بنظرية ناقدة إلى التراث الإسلامي والتراث الإنساني في المجالات الاجتماعية والانسانية.
5. عدم تناسي سلم الأولويات في حياة الأمة
6. رفض الانعزال عن هموم الأمة
7. الحيلولة دون الانغماس في فكر مجرد
8. التمتع بأكبر قدر من المرونة اللازمة والمبادرة المبدعة.
9. تحقيق أكبر قدر من المشاركة في تأصيل القضية ودفع الآخرين للانخراط في صفوف العاملين لها
10. عدم إبراز الهوى والميل الشخصي على أنه فكر

شكل (5-11)